

محاولة في فهم رواية « السد »

الانسان .. والفعل في « السد »

- ١ - تصدير
- ٢ - تمهيد
- ٣ - عرض وتحليل
- ٤ - نقد وتفسير

« ليأمن النقاد المعاصرون اننى لست نافدا ..
ولن اكون .. ! ولكننى انسان يفهم ما يتدبرا
او (يحاول) .. » .

عبد الحليم عبد الله

« السد » رواية في ثمانية مناظر
- محمود السعدى - شركة شمال
افريقيا - طبعة اولى
تونس ١٩٥٥

اهداء

الى استاذى الدكتور عبد المحسن طه بدر
مؤمنا بالانسان : .. مناظلا شريفا ..
لتغيير واقعه .. وقدره : الى الافضل

هذه المحاولة المتواضعة جدا ، وقد
اكتشفها قبلى زدى .. فلم يرفضها ..
فى شهر مايو ١٩٦٦ قبل تخرجى

بشهر .. وفتح الحوار ...

الإنسان .. والفن في « الأسد »

تصدير :

لم أكره شيئا على الادب .. والفن .. كرهى ان يتحدث
الإنسان عن عمل ، أو تجربة .. ملخصا .. أو شارحا .. أو ناقدا
وكأنى التقيت مع « تولستوى » فى هذا .. أو اخذته عنه أو
تعاطفت فيه معه . وهو الذى يرى فى كتابه : « ماهية الفن » :
« ان الفن الذى لا يفهمه الشعب ولا يستسيغه لا يمكن أن يكون
قنا مهما ارتقى (١) .. »

أما الذى يهمنى دائما : أن افكر بالخلق .. بالابتكار .. بالإنشاء
وأما عن وصف لما أرى من أعمال غبرى .. ؟ ! فذاك عندى محض
هراء .. محض عبث .. ومحض قسوة أيضا .. ولذلك كنت
لا أحسن .. ولا أميل الى هذا الصنيع .. « ما أنبل الابداع الفنى
وما أجمل بناءه المنطوى على الأسرار . وما أشد سماجة أى تحطيل
لهذا الابداع ، يفض أسرار ، ويشرح جسده النبيل الجميل ...
ولا ادعى أننى سأحقق كل هذا (٢) .. »

ولهذا أريد أن تسألنى .. ماذا خلقت ؟ .. ولكن لا تسألنى ..
كيف ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟ ولمن ؟ واين ؟ ..

(١) انظر كتاب « النقد الادبى » ص ٤٠ الدكتوروة سهر القلماوى القاهرة

١٩٥٩ .

(٢) تأملات فى عالم نجيب محفوظ . ص ٦٣ . محمود امين العالم - القاهرة

١٩٧٠ .

كان هذا شعورى من أيام * : اتألم تحت جبر نفسى على تحليل
رواية « السد » وبسمى ما يزال ** صدى كلمات حزينة مؤثرة
هممها المؤلف بمناسبة أول تشريح لروايته فى ندوة أدبية عمومية
ظمتها « الجامعة الحرة للثقافة » : « . . . أما موقعى أنا أبهى
السادة فأشبه بموقف العليل يطرح على مائدة التشريح وليس له
الا أن يرى الطبيب يتحرك والمرضة تتحرك . . والآلات تعمل
عملها . . فهذا بالقطع وهذا بالتشريح وهذا بالتضديد وهذا
بالدواء . . . والعليل ليس له فى كل ذلك الا أن يتحمل الألم
ويلتد بالدواء أن وجد منه راحة (١) . . » وسكت قليلا ثم قال :
« . . . والحقيقة أنه أن كان لا يوجد فى هذه القاعة شخص ليس
له الحق فى أن يتكلم فى السد فهو أنا . . » .

وأن كنت مسبقا أعرف عجزى عن ذلك . . وكرهى لذلك . . .
وصعوبة الرواية . . وأقمت على مضض يرهقنى . . لأقول عن
السد : كلمات . . هراء ؟ فسأحاول . . كما حاول . . غيلان . .
« الفعل » وبسمى ضجيج كلمات : « أبدا الآلهة لا يهمها ما يقال
عنها . . ؟ وإنما يهمها أن تخلق عوالم وتنصرف لشأنها » .

واحتترقت : بحثا . . وجمعا . . ولما . . لاشتات فكرى ؟

* انتهى . . . كتمال قصير فى افكاره الرئيسية فى مارس ١٩٦٦ لكن حوارى
امتد معه - فلم يشكر احدنا للآخر - تطويلا . . وتوسعا . . وزيادة فى المراجع
دون الجراة على كتابته وتنظيمه من جديد . . ! واعترف بتقصيرى فى عدم ذلك ؟ . .
وكانى خفت بذلك أن اتلف شيئا من عفويته . . ! بل كنت أهرب من النزول اليه
مرة ثانية تاركا امر ذلك الى غيرى . . ؟ . . اذ النزول اليه - السد - شاق
كالمصعود منه . .

** حضرت الندوة « فيفري ١٩٥٧ » وقد نشرت الكلمات فى عدد خاص «
بمجلة الفكر ، مارس سنة ١٩٥٧ تونس .
(١) مجلة الفكر - مارس ١٩٥٧ .

لاكتب عنه مع ذلك كله : اعمى .. أصم .. بليدا .. ولست غير ذلك امامه .. ؟

وكأننى « أنا » ايام صدوره لسنوات خلت .. التهمته بدافع الفضول أو التطلع أو حب الظهور دون أن اعى منه شيئا سوى كلمات مرصوفة .. واشباح غريبة .. ومقاصد وافكار لا تفهم .. !

وبقى يراودنى الحنين اليه كلما تقدم بى الزمن لحظة عنه ... واحد ادباء العصر قال عن نفسه بعد قراءته له اكثر من مرة : « ولست ادرى أفهمت القصة أم لم افهمها ؟ ! » (١) .

ولست ادرى اذا استوعبت « المسعدى » فكرة « بوالو » : « ثمة نوع من المجد فى الا يفهمك احد » .

و - أنا - اذا فعلت شيئا .. ؟ فيخيل الى ذلك ! وما فعلت .. مستعيرا من مدام « دى استال » Madame De Stall قولها الشهير فى قصة « فاوست » Faust لجوته لما قراتها لا قوله هنا : « ... ان هذه القصة تضطرك الى أن تفكر فى كل شيء والى أن تفكر فى امر آخر فوق كل شيء (٢) .. »

وكما قال أيضا عبد الكريم الاشر عن « مرداد » نعيمه : « ... لقد حاول نعيمه أن يضع كتاب الحياة كلها باتجاهاتها الكبيرة والصغيرة : بان يصوغ نظرية فلسفية عامة (٣) ... » ولكنه : « عمل فنى على نطاق ضيق » كما قال ناقد رايه فى رواية لكاتبة انجليزية اهدتها له ؟

(١) مجلة الفكر مايو ١٩٥٧ « طه حسين » .

(٢) « فاوست » جوته - ترجمة الدكتور محمد عوض « المقدمة » .

(٣) النشر المهجرى - عبد الكريم الاشر .

ومنذ البدء انبه القارئ الى انه سيجد نفسه معى خلال هذا الحديث فى دوامة عنيفة .. لان الماء من « السد » يندفع .. غزيرا فمرة ياخذ السير الطبيعى للارض .. واخرى يشق لنفسه طريقا .. ثم يعود .. وهكذا ..

والحقيقة ان « السد » عمل ادبى عملاق فى الادب العربى المعاصر بتونس - فى دنيا الرواية - تفخر به مثلما تفخر بديوان^٩ شعر واحد هو « اغانى الحياة » لابی القاسم الشابى ، وما عدا ذلك لحد الان فهى محاولات جاهدة .. مخلصة تبحث عن نفسها .. ولم تصل الى المستوى الذى يخول لبعضهم ليلث ضمنا بانه أصبح من الادباء الكبار وان الادب فى بلده وفى المغرب العربى عموما مهضوم الحق فى الجناح الشرقى من الوطن العربى .. وهى قضية مفتوحة منذ القديم وستبقى ما بقى الشعور والاحساس بالاقليمية ، ولهذا بعضهم يرفضها ، وآخرون يتعصبون لها تذكيرا او احياء لما قيل : « هذه بضاعتنا ردت الينا » وهو تفكير فوقى ، تسلطى ، افليمى نرفضه وندينه فى « التراث » كذلك .. خير لهذا ان يحترم نفسه ورفاقه .. وان يترك الادعاء .. لانه ايضا ينكر على المسعدى * (١٩١١) : ادبيا فى « السد » .

تمهيد :

« السد » ** رواية تبدأ بالحوار وتختتم به .. كانها مسرحية قد كتبت لتقرأ لا لتمثل وهذا جانب من جوانب العجز امامها !

* للمسعدى - ايضا - « حدث أبو هريرة .. قال » و « مولد النسيان وتأملات أخرى » وفيهما لا يتعد كثيرا عن أسلوبه ولا عن تفكيره فى « السد » . وتجديلاولى « ترجمة للدؤلف فى سطور » .

** حاول الاستاذ الشاذلى القليبي ان يثير اكثر من قضية .. فى مقدمته للسد بارعا فى تكثيفها وتعميقها .. متصلا بمشكلة « الفعل » .. مانزما - فقط - الاخلاص « للفكر » الامر الذى لم يراعه غيره فى مقدمته ..

تشتمل على ثمانية مناظر .. يتوزع الحياة فيها : كائنات متناقضة متصارعة .. غريبة عن بعضها .. كل مشدود الى عمل يؤديه .. ؟ كعالم الرب تماما او كاعماق الانسان بما فيه من تناقض واختلاط وعناصر وميول متضاربة .. وهذه الحياة مركوزة بين جبل وواد .

«ميمونة» امرأة .. « غيلان » رجل كائن زائف .. « ميارى» : خيال وطيف وحب وجمال « بغل ذكى ، ذئب ذو عواء . اطياف وهواتف .. »

عالم الانسان : امام نفسه والطبيعة والكون .. وشئت القوى المجهولة والاساطير والالغاز مريدا ان يكون فيه ربا قويا جادا .. صارما ماكرا .. مهدما عوالم وقيما وعادات ورتابة .. ليقيم عالمه الافضل : عالم الخلق .. والفعل .. والابتكار .. والانشاء .. عالم الحركة القادرة .. عالم الفعل الصرف .. وكأنه « سارتر » يقول : « فعلا » لا كلمات : .. انت لست الا حياتك .. انت لست الا ما صنعت .. » .

وجودى .. يترجم عن الاعماق والعضلات وهو اليها اقرب ، يتميزق امام هول اعتقاده : الفشل نهائيا .. ولكنه مشدود الى فعله بمرارة « كسيزيف » تماما مشدود الى عمل .. ! لكنه يعتقد جدواه ويعلق عليه آمالا وهو عنيد يلحق « نيتشة » دروسا فى الصرامة والقوة ، والايمان بالتغيير والكفر بالنواميس والعراقيل .. ومثل الالف والمادة .

عرض وتحليل :

... على منحدر* جبل اخشب غليظ حزين نباته كالابر وارضه

* حرصت .. ليكون تلخيص « الرواية » - وهو عمل مكروه - طويلا وبه الكثير من كلمات المؤلف وتعبيراته .. لان الرواية مفقودة فى مكتبات الشرق العربى ، ثم لفكرة الرائجة عنها بانها عمل صعب ، وغامضة الموضوع والهدف .